يوحنّا الذهبيّ الفم وعظاته ضدّ اليهود

الأب أيوب شهوان
أستاذ مادة الكتاب المقدس – جامعة الروح القدس، الكسليك

مقدمة: الذهبيّ الفم في مواجهة المتهوّدين في أنطاكيا

في السنة ٣٨٦، عُيِّنَ الذهبيّ الفم واعظًا في مدينة أنطاكيا، وكان قد نال الدرجة الكهنوتية قبل ذلك ببضعة أشهر، فوجد نفسه في مواجهة معضلة جدّيّة سَبَبُها استمرارُ عددٍ لا بأس به من المسيحيين هناك على ارتياد مجمع اليهود، مُبدِينَ عدمَ فهمهم للأسباب الموجبة للتخلّي عن هذه العادة. رأى الذهبيّ الفم في هذا الانحراف الذي تعيشه الجماعة الأنطاكية "المرض اليهوديّ" الذي أضحى علّةً في جَسَدِ الكنيسة، وينبغي بالتالي معالجته؛ يقول: "ما هو هذا المرض؟ إن أعياد هؤلاء اليهود التعساء والبؤساء هي متواصلة ولا تنقطع: الأبواق، والمظالّ، والأصوام، الخ؛ إنّ عديدين من الذين يُعْتَبرون أنهم منّا، ويصرّحون بأن لهم المشاعرَ ذاتها التي لنا، يحضرون هذه الأعياد؛ فبعضهم يذهبون كما إلى مسرحية، وبعض آخر يشارك فيها بنشاط، ويحفظ الأصوام اليهودية. من هذه العادة المنحرفة أريد أن أنقذ الكنيسة الآن"(١). وطوال سنة بكاملها، راح الذهبيّ الفم يطبّق العلاج من خلال تعليمه. وتمّ تجييش الجميع لهذه المهمّة، على اعتبار أن المسيحي هو "عضو في هذا الجسم الكبير الذي رأسه يسوع"(٢). ومنذ ذلك الحين، أوحى الذهبيّ الفم للمسيحيّين بأن يعملوا كلّ ما باستطاعتهم ليُعِينوه في عملية شفاء الإخوة المرضى: "لا تهملوا أية وسيلة لتخليصه من شباك الشيطان، وإنقاذه من كلّ رباط مع **قَتَلَةِ يسوع المسيح**"(٣).

١ – هل يوحنا الذهبيّ الفم مُعادٍ لليهودية؟

يوحنا الذهبيّ الفم هو أحد آباء الكنيسة الأكثر تعرُّضًا للاتهام بأنه مُعادٍ للساميّة، وإبداءُ الرأيِ في الأمر ليس بالسهل؛ فمن جهة أولى، الذهبيّ الفم هو ساميٌّ، ولغتُه الأمّ هي الآرامية، وتحديدًا السريانية؛ ومن جهة ثانية، كانت الكنيسة في أنطاكيا تعيش نوعًا من الوضع المتناقض والمعقّد، كونُ المسيحيّين كانوا ما زالوا يواصلون ارتياد المجمع اليهودي بشكل منتظم؛ من هنا كانت ردّة فعل الذهبيّ الفم القويّة، وفي خطّ القديس بولس، على استمرار المؤمنين على اتبّاع العادات اليهودية، معتبرًا ذلك إنكارًا محسوسًا وملموسًا لعمل يسوع المسيح الخلاصيّ (رج غل ٥: ٢)(٤).

(١) يوحنا الذهبيّ الفم، **عظات ضد اليهود** ١: ١. معظم الاستشهادات المستلّة من عظات الذهبيّ الفم هو من تعريبنا.

(٢) **المرجع ذاته**، ١: ٣.

(٣) **المرجع ذاته**، ١: ٤. لهذه الجملة، "قَتَلَةُ يسوع المسيح"، صدى سلبيّ كبير عند اليهود عامةً، ولدى مفكّريهم وكتّابهم خاصة.
R. BRAUN, «Le peuple juif, est-il déicide?», in *Rencontre chrétiens et juifs*, n° 10, supplément, 1975, p. 54 à 71.

(٤) رج في هذا المجال: Jacques FANTONI, «Éditorial», *La connaissance des Pères de l'Église*, 29 (1988) 3.

يقول مرسيل سيمون: "إنَّ أعظم ناطق بالهجومات ضدّ اليهود هو، من دون اعتراض، القديس يوحنا الذهبيّ الفم؛ فعنده نجد الطعنَ والتنديدَ بهم، والشكوى عليهم. عنده يظهر هذا الدمج لعناصر مستعارة من القريحة المعادية للساميّة الشعبية، ومن تشكيات لاهوتية بامتياز، واستعمال نصوص بيبلية في هذا السياق هو العلامة الفارقة لِلاَّساميّة المسيحية، ويُسْتَشَفُّ هذا العداءُ للساميّة من كلّ مؤلفاته"(٥).

لكن يحقّ لنا أن نتساءل عمّا إذا كان الذهبيّ الفم هو حقًا مُعادٍ للساميّة. على الباحث عن إجابةٍ على هذا التساؤل أن ينطلق من الملفّ الذي نحن بصدده، أي عظاتُه التي وصلت إلينا تحت عنوان: "عظاتٌ ضد اليهود"، والعودة إلى عظاته التي فسّر فيها روم ٩-١١، ثم تَبَيُّن فِكْرِ بولس ووجهةِ نظره في بني قومه، وصولاً إلى إبراز التناغم بين موقفَي الذهبيّ الفم ورسول الأمم.

لذا ينبغي التمييز بين العداء لليهودية (antijudaïsme)، وهو عداء للديانة اليهودية، وبين العداء للساميّة (antisémitisme)، وهو عداء لليهود. هناك بالتأكيد تفاعل بين العداءَين.

في الغرب، ومنذ نشر البابا بيوس الحادي عشر رسالته العامة، **بقلق ملتهب**(٦)، والتي أكّد عليها خَلَفُه البابا بيوس الثاني عشر، شجبت الكنيسة الكاثوليكية رسميًا الإيديولوجيات السياسية العنصرية، باعتبارها مناهِضة لعقيدتها. إن دراسة معمَّقة للجذور اللاّدينيّة للعداء للساميّة، يكشف عن استمرار الأحكام المسبقة، أو بعض صيَغ العداء التي يمكن أن تكون مرتبطة باعتراضات لاهوتية حول موضوعات مختلفة، كالتعلّق المغالَى فيه بالشريعة، ونظرية الاختيار، الخ. قد تكون النتيجة جهلاً لليهودية ولتقاليدها الدينية المتجذّرة في البيبليا. يشدّد العداء لليهودية على رَذْلٍ دينيّ لهذه الأخيرة، في حين أن العداء للساميّة يُفضي بالأحرى إلى نظرية عرقية. في كل حال، من الصعب الفصل بين البُعدَيْن الديني والعرقيّ؛ فالصراعات بين الرومان واليهود، مثلاً، لم تكن تقتصر على صراعات بين وثنيين ويهود.

٢- كيف يخاطب الذهبيّ الفم سامعيه؟

إنّ عظات الذهبيّ الفم هي موجَّهَة إلى المتهوِّدين(٧) وليس ضدّ اليهود؛ وعندما يهاجم هؤلاء، فهو يستخدم طريقة البلاغيين الكلاسيكية المتداولة(٨)، بهدف اجتذاب المتعاطفين معهم إلى معسكره. من هنا غياب الاهتمام بجعل اليهود يرتدّون، إذ لم يكن هذا هدفَه. لذلك لا تجوز حتى المقارنة بين العداء للساميّة وبين هذه العظات؛ وإذا أردنا أن نفعل، فإنّ الذهبيّ الفم يبدو حليمًا إلى حدّ كبير. بالطبع هو لا يدعم وجهةَ النظر القائلةَ إنّ اليهودية هي مساوية للمسيحية. إنطلاقًا من هنا، رأى أنّ اليهوديةَ كانت ديانةً زائفة، ومع هذا كانت لها جاذبيّتها بالنسبة إلى بعض أبناء رعيّته. ونشير هنا إلى أنّ الطَّعْنَ المَدبَّجَ كان أسلوبًا يونانيًّا رومانيًّا معروفًا؛ لذا كانت معظم الإعلانات المُهينةِ شعاراتٍ بلاغية (rhétorique) حصرًا.

(٥) Marcel SIMON, *Verus Israel*, Paris 1964, p. 256; Jules ISAAC, *Jésus et Israël*, Paris, Albin Michel, 1948.

(٦) Pius XI, *Mit brennender Sorge*, *AAS* XIX (1937) 149.

(٧) JOHN CHRYSOSTOM, *Discourses against Judaizing Christians* (vol. 68 of Fathers of the Church), trans. Paul W. Harkins (Washington, DC: Catholic University of America Press, 1979); *Discourses Against Judaizing Christians* (The Fathers of the Church, 68, by Paul W. Harkins, 1999); Hans KÜNG, *Le Judaïsme*, traduction de J. Feisthauer, Paris, Seuil, 1995.

(٨) الياس كويتر، **خطيب الكنيسة الاعظم القديس يوحنا الذهبي الفم: حياته وبعض من مواعظه**، ترجمها آباء مخلصيون، سلسلة "الفكر المسيحي بين الأمس واليوم"، ١١؛ منشورات المكتبة البولسية: جونيه، ١٩٨٨.

٣- عظات الذهبيّ الفم في خطّ الأنبياء والآباء

في عظات ثمانية شهيرة يعترض الذهبيُّ الفم بقوة على اليهودية التي ينتقدها بشدّة في عباداتها وعاداتها، وهو في ذلك في خطّ أنبياء العهد القديم، وعلى خطى المسيح يسوع، لذلك اعتبره البعضُ عدوًّا للساميّة، لكنّ مواقفَه هي في سياق تقليد يوستينوس، وترتوليانوس، وأثناسيوس الكبير، والآباء الكبادوك، الذين وقفوا في وجه محاولات جذْب المسيحيين إلى العبادة اليهودية، بهدف جرّ هؤلاء إلى الإيمان القديم، وبالتالي القضاء على عمل يسوع الخلاصيّ. لذلك انتقد الذهبي الفم الأعياد اليهودية التي كان المسيحيون في أنطاكيا يشاركون فيها، وكأنّهم غير مدركين ما حقّقه الربُّ لأجلهم.

لقد كانت الجماعة اليهودية في أنطاكيا مقتدرةً إلى حدٍّ كبير بغناها المادّيّ، إلى حَدّ أنّها استطاعت التأثير حتى على السلطة السياسية. كذلك تولّى عددٌ من اليهود هناك مسؤوليّات قضائية هامّة، حكمت من خلالها في مسائل عائدة إلى المسيحيين الذين، تداركًا لِما لا يشتهون في هذا المجال، راحوا يشاركون في اجتماعات اليهود الدينية والاجتماعية، ممّا أدّى إلى اعتمادهم ممارسات يهوديّة مخالفة للمسيحية[٩].

كلّ هذه الأسباب جعلتْ الذهبيّ الفم يتحوّل من واعظ وحسب، إلى مهاجِم جريء، له وسائلُه الأدبيّة والبيبليّة والدفاعيّة. ويبدو أنّه استوحى جرأته القصوى هذه من الكتاب المقدس، حيث يُوصَف إسرائيل عادة بأنه لا يحفظ العهد ويخون، وبأنّه يشبه المرأة الزانية. أقسى من ذلك أيضًا هو تشبيه إسرائيل بالحيوانات: "إنّ رقباءه كلّهم... كلابٌ نَهِمَةٌ لا تشبع" (أش ٥٦: ١٠ و١١)؛ "بقرات باشان" (عا ٤: ١)؛ "عِجْلَةٌ شَموسٌ" (هو ٤: ١٦)؛ "صاروا حُصُنًا معلَّفَةً هائمَةً، كلٌ يَصهل على امرأة قريبه" (إر ٥: ٨). يستشهد مرسيل سيمون بناقد يهوديّ "كان يستنتج بمرارةٍ أن الأنبياءَ، وهم زهرةُ إسرائيل، يتحمّلون مسؤوليّة بغض غير مقصودة أضرمته الكنيسة الأولى ضدّ إخوتهم"[١٠].

٤- عظات الذهبيّ الفم ضدّ اليهود: تسميتها

تدعى عظات الذهبيّ الفم ضدّ اليهود في اليونانية Κατα Ιουδαιων، التي أصبحت *Adversus Iudaeos* في اللاتينية، و *Against the Jews* في الإنجليزية. ترى الترجمات العلمية الأحدث أن المستهدفين الأوائل في هذه العظات كانوا أعضاء جماعة الذهبيّ الفم الخاصة، الذين كانوا يواصلون حفظ الأعياد والأصوام اليهودية، لذلك تعطي هذه العظات العنوان التالي: "ضدّ المسيحيّين المتهوّدين"[١١].

يعطي مُونْفُوكُون (Montfaucon)، وهو الناشرُ البنديكتي للعظات، الحاشية التالية للعنوان: "خُطْبة ضدّ اليهود، لكنها أُعطِيَت ضدّ أولئك الذين كانوا يهوّدون (Judaïsants) ويحفظون الأصوام معهمَ [اليهود]. وإذ الأمر هكذا، أعلن البعضُ أنّ العنوان الأصليّ لا يمثّل جيّدًا مضامين الخُطَب التي تبيّن أن المستهدفين الأوائل من الذهبيّ الفم لم يكونوا اليهود، بل أعضاء من جماعته واصلوا حفظ الأعياد والأصوام اليهودية. أعطى هنري ساڤيل (Henry Savile)

(٩) رج محاضرة يوحنا اليازجي، "يوحنا الذهبي الفم وأنطاكية"، في **المؤتمر العالمي العلمي لاحتفالية مرور ١٦٠٠ سنة على رقاد القديس يوحنا الذهبي الفم**، في استنبول ١٣- ١٨ أيلول ٢٠٠٧.

(١٠) LUCAS, *Zur Gechischte der Juden im vierten Jahrhundert*, Berlin 1910, p. 37, cité par Marcel SIMON, *Verus Israel,* Paris, 1964, p. 254; Jean Chrysostome, *Contre les juifs*, 1,7, p. 48, col. 853 et 854.

(١١) Hans KÜNG, *Le Judaïsme*, traduction de J. Feisthauer, Paris, Seuil, 1995.

٣- عظات الذهبيّ الفم في خطّ الأنبياء والآباء

في عظات ثمانية شهيرة يعترض الذهبيُّ الفم بقوة على اليهودية التي ينتقدها بشدّة في عباداتها وعاداتها، وهو في ذلك في خطّ أنبياء العهد القديم، وعلى خطى المسيح يسوع، لذلك اعتبره البعضُ عدوًّا للساميّة، لكنّ مواقفَه هي في سياق تقليد يوستينوس، وترتوليانوس، وأثناسيوس الكبير، والآباء الكبادوك، الذين وقفوا في وجه محاولات جذْب المسيحيين إلى العبادة اليهودية، بهدف جرّ هؤلاء إلى الإيمان القديم، وبالتالي القضاء على عمل يسوع الخلاصيّ. لذلك انتقد الذهبي الفم الأعياد اليهودية التي كان المسيحيون في أنطاكيا يشاركون فيها، وكأنّهم غير مدركين ما حقّقه الربُّ لأجلهم.

لقد كانت الجماعة اليهودية في أنطاكيا مقتدِرةً إلى حدٍّ كبير بغناها المادّيّ، إلى حَدّ أنّها استطاعت التأثير حتى على السلطة السياسية. كذلك تولّى عددٌ من اليهود هناك مسؤوليّات قضائية هامّة، حكمت من خلالها في مسائل عائدة إلى المسيحيين الذين، تداركًا لِما لا يشتهون في هذا المجال، راحوا يشاركون في اجتماعات اليهود الدينية والاجتماعية، ممّا أدّى إلى اعتمادهم ممارسات يهوديّة مخالفة للمسيحية[٩].

كلّ هذه الأسباب جعلتْ الذهبيّ الفم يتحوّل من واعظ وحسب، إلى مهاجِم جريء، له وسائلُه الأدبيّة والبيبليّة والدفاعيّة. ويبدو أنّه استوحى جرأته القصوى هذه من الكتاب المقدس، حيث يُوصَف إسرائيل عادة بأنه لا يحفظ العهد ويخون، وبأنّه يشبه المرأة الزانية. أقسى من ذلك أيضًا هو تشبيه إسرائيل بالحيوانات: "إنّ رقباءه كلّهم... كلابٌ نَهِمَةٌ لا تشبع" (أش ٥٦: ١٠ و١١)؛ "بقرات باشان" (عا ٤: ١)؛ "عِجْلَةٌ شَموسٌ" (هو ٤: ١٦)؛ "صاروا حُصُنًا معلَّفَةً هائمَةً، كلٌ يَصهل على امرأة قريبه" (إر ٥: ٨). يستشهد مرسيل سيمون بناقد يهوديّ "كان يستنتج بمرارةٍ أن الأنبياءَ، وهم زهرةُ إسرائيل، يتحمّلون مسؤوليّة بغض غير مقصودة أضرمته الكنيسة الأولى ضدّ إخوتهم"[١٠].

٤- عظات الذهبيّ الفم ضدّ اليهود: تسميتها

تدعى عظات الذهبيّ الفم ضدّ اليهود في اليونانية Κατα Ιουδαιων، التي أصبحت *Adversus Iudaeos* في اللاتينية، و *Against the Jews* في الإنجليزية. ترى الترجمات العلمية الأحدث أن المستهدفين الأوائل في هذه العظات كانوا أعضاء جماعة الذهبيّ الفم الخاصة، الذين كانوا يواصلون حفظ الأعياد والأصوام اليهودية، لذلك تعطي هذه العظات العنوان التالي: "ضدّ المسيحيّين المتهوّدين"[١١].

يعطي مُونْفُوكُون (Montfaucon)، وهو الناشرُ البنديكتي للعظات، الحاشية التالية للعنوان: "خُطْبة ضدّ اليهود، لكنها أُعطِيَت ضدّ أولئك الذين كانوا يهوّدون (Judaïsants) ويحفظون الأصوام معهمَ [اليهود]. وإذ الأمر هكذا، أعلن البعضُ أنّ العنوان الأصليّ لا يمثّل جيّدًا مضامين الخُطَب التي تبيّن أن المستهدفين الأوائل من الذهبيّ الفم لم يكونوا اليهود، بل أعضاء من جماعته واصلوا حفظ الأعياد والأصوام اليهودية. أعطى هنري ساڤيل (Henry Savile)

(٩) رج محاضرة يوحنا اليازجي، "يوحنا الذهبي الفم وأنطاكية"، في **المؤتمر العالمي العلمي لاحتفالية مرور ١٦٠٠ سنة على رقاد القديس يوحنا الذهبي الفم**، في استنبول ١٣- ١٨ أيلول ٢٠٠٧.

(١٠) LUCAS, *Zur Gechischte der Juden im vierten Jahrhundert*, Berlin 1910, p. 37, cité par Marcel SIMON, *Verus Israel,* Paris, 1964, p. 254; Jean Chrysostome, *Contre les juifs*, 1,7, p. 48, col. 853 et 854.

(١١) Hans KÜNG, *Le Judaïsme*, traduction de J. Feisthauer, Paris, Seuil, 1995.

الإخوة السبعة الشهداء موضوع إكرام، إلى كنيسة على يد المسيحيين بعد موت يوليانوس. لا يَرِد ذكرُ هذا التحويل إلاّ في مصادر متأخرة. تتكلّم المصادر الأقدم، كما الذهبيّ الفم بالذات، عن إكرام كان يُؤدَّى للمكّابيّين في الكنيسة المسيحيّة، ولكنّها لا تضيف شيئًا حول إكرام هؤلاء الشهداء قبل ذلك في مجمعٍ يهوديّ ما، ولا حول تحويل هذا الأخير إلى كنيسة.

٦- عظات الذهبيّ الفم ضدّ اليهود مسألة وجود

إنّ التفسير الوحيد للمواقف المتضمَّنَة في العظات هو العلاقة بين اليهود والمسيحيين في أنطاكيا، خاصة مسألة ارتياد هؤلاء مجمع اليهود في أعياد أو أصوام يهوديّة، واعتماد مبادىء هؤلاء أو عاداتهم؛ فهناك، مثلاً، امرأة مسيحية أُخِذَت إلى بيتٍ يهوديّ لتأدية حَلَفٍ في قضيّة عمل تجاري، لأنّ المسيحيّ الذي كان يتعامل معها كان يعتقد أنّ قَسَمًا يجري وفق الطريقة اليهوديّة كان أكثرَ إلزامًا من أيّ قَسَمٍ آخَر. إستنادًا إلى وجهة نظر الذهبيّ الفم، تكمن المسألة في أنّ المرأة المسيحية أُخِذَت إلى بيتٍ يهوديٍّ من أجل الحَلَف، وليس أنّه أُغرِيَ بها أو لُقِّنَت عقيدةً منحرفة أو أيّ أمرٍ آخر (عظة ١: ٣). لكن إذا عُدْنا إلى مواقف الذهبيّ الفمّ، سيتبيّن لنا أن الأمر هو أكثر جديةً مما يُعْتَقَد.

فهذا الأخير يرى أنّه، "بالاستناد إلى مز ٩٦: ٣٧، هم اليهود مَن كانوا **يضحّون بأبنائهم وببناتهم للأبالسة**: لقد أساؤوا إلى الطبيعة، وأطاحوا بشرائع العلاقة مع الله من أساساتها. لقد أصبحوا أسوأ من الحيوانات البرّيّة، ومن دون أيّ سبب، قَتلوا بأيديهم نسلَهم بالذات، ليعبدوا الأبالسةَ المنتقمة، التي هي عدوّة حياتنا" (عظة ١: ٦). وفي عظته السادسة قال: "إنّهم، وإذ لم يعودوا يقتلون أطفالَهم، قتلوا المسيح، وهذا أسوأ" (عظة ٦: ٢، ٢).

أمّا كلامه ضمن الحملة على المجمع اليهودي، خاصة من حيث هوس بعض المسيحيين بهذا الأخير وباحتفالات اليهود فيه، فيأتي أيضًا عاصفًا كما يلي: "**إنّ مجامع اليهود هي بيوت عبادة الوثن والأبالسة**، حتى ولو لم يكن لهم صُوَرٌ فيها" (عظة ١:٣، استنادًا إلى إر ٧: ١١). "هم أسوأ من حيوانات مسعورة" (عظة ١: ٣). "إنّ مجرّد **فكرة الذهاب من كنيسة إلى مجمع هي تجديف**" (عظة ٢: ٣)؛ "كذلك **حضور فصح اليهود هو إهانة للمسيح**. أن يكون المسيحيُّون مع اليهود في اليوم ذاته الذي فيه قتل هؤلاء يسوع، هو تأكيد على أنه، في يوم الدينونة، سيقول لهم: إذهبوا عني، لأنكم قد تواصلتم مع قَتَلَتي" (عظة ٣: ٥؛ ٦: ٨). "يقول البعض إن **المجمع اليهودي يتقدّس لأنّ الكتب المقدسة، كتب الشريعة، توجد فيه**. بالمقارنة، يمكن المرء أن يقول إنّ هيكل داجون كان مقدَّسًا بسبب وجود تابوت العهد فيه، حتى ولو دَمَّرَ التابوتُ الصنمَ هناك كبرهانٍ على عكس ذلك" (عظة ١: ٥، استنادًا إلى ١ صم ٥). "من الأصدق القول إنه، لكون هذه الكتب موجودةً في مجامع اليهود، فإنها تصبح مكروهةً أكثر، لأنّ اليهود، وبكلّ بساطة، قد أدخلوا هذه الكتب، ليس لتكريمها، بل لإهانتها، وللمَسّ بكرامتها" (عظة ١: ٥؛ ٦: ٦).

أمّا في شأن العبادة اليهودية، ورَذْلِ الله لهم ولها، فإنّ الذهبيّ الفم لا يتورّع عن الذهاب بعيدًا في كلامه، إذ يقول: "**لا يعبد اليهودُ اللهَ بل الأبالسةَ**" (عظة ١: ٣؛ استنادًا إلى يو ٨: ١٩)، "وهكذا كلُّ **أعيادهم هي غير نقيّة**" (عظة ١: ٦). "إنّ **الله يبغضهم**، وبالتأكيد أبغضهم دائمًا. ولكن، منذ قَتْلِهم يسوع، لم يُعْطِهم الوقتَ للندم" (عظة ٦: ١). "عن قصدٍ **ركّز عبادتَهم كلَّها في أورشليم** حتى يتمكّن بسهولة أكبر من أن يدمّرهم" (عظة ٤: ٦). "إنّ ادّعاء اليهود بأنّ سوءَ طالعِهم سببُه روما لا يستحقّ التوقُّفَ عنده؛ لم يفعل القياصرةُ بقوّتهم الذاتيّة ما فعلوه بكم: لقد كان ذلك **غضبًا من الله عليكم، ورَذْلاً مطلَقًا لكم**" (عظة ٦: ٣). "من السذاجة التصوّر، في وجه هذا الرّذل المطلَق، أنّ الله سيسمح لليهود بعد الآن أن يُعيدوا بناء هيكلهم أو أن يرجعوا إلى أورشليم. يجب أن يقنعَهم بهذا اختبارُهم أيام يوليانوس" (عظة ٥،

وفي أماكن أخرى مختلفة أيضًا). عندما يتأكّد المسيحيون أنّ **الله يُبغض اليهود**، يتوجّب عليهم أن يبغضوهم هم أيضًا. ويبدأ عظته السادسة مستعينًا بتشبيهٍ لحيوانٍ في الحلبة، ذاق طعمَ الدم، فاشتاق إلى المزيد منه. هكذا، بدأ **الذهبيّ الفم بشجب اليهود**، ولن يتوقّف عن ذلك (عظة ٦: ١)، لأنّه، هو الذي لا حَدَّ لمحبّته للمسيح، عليه ألاّ تكون عنده حدود في معركته ضدّ أولئك الذين يبغضون المسيح (عظة ٧: ١). الذهبيّ الفم هو غاضب على اليهود لأنّ عندهم الشريعة ويهينونها.

٧- لكن ماذا تقول العظات حقًّا؟

يبيّن تحليل العظات الست للذهبيّ الفمّ التي ألقاها في أنطاكيا ضدّ اليهود **طُرُقَ النقاش**، وأيضًا **وَضْعَ المسيحيين واليهود المتبادلَ**، **والعلاقاتِ** القائمةَ بين الفريقَين.

لا يقول الذهبيُّ الفم بالتأكيد في اليهود إنّ الله يُبغضُهم، وإنه أبغضهم دائمًا، أو إنه هو ذاتُه يُبغضهم، ولا حضّ المسيحيين على أن يفعلوا ذلك. إنّ المعتاد على كتابات الذهبيّ الفم يعرف أنّ ما يُعتَقَد أنّه البغض لا يعني رغبةً عنده في أن يُبيدَ اليهود أو أن يُنزِل بهم العذابات، ولا نظر إليهم كمخلوقات أدنى بالطبيعة.

إنّ هذه **المواعظ** للذهبيّ الفم هي مميّزة وثمينة. فيها نجد كلّ الخطّة التي استخدمها الوعّاظُ المسيحيّون طوالَ القرون الأولى، هذا المزيج من المنطق ومن التعنيف، من الإقناع ومن التقريع، الذي بقي خاصّةَ الوعظِ ضدّ اليهود. لدى قراءتنا هذه المواعظ، تتكوّن أمامنا لوحةٌ حيّةٌ وحيويّةٌ للعلاقات اليهوديّة المسيحيّة في القرن الرابع، علاقات دامت متوتّرةً طويلاً حتّى القرن التاسع تقريبًا.

- العظة الأولى

- يقول الذهبيّ الفمّ في العظة الأولى: إنّ اليهود هم أُناسٌ جَهَلَة لا يفهمون شريعتَهم، وبالتالي هم أثمة. إنهم أناسٌ بؤساء، كلاب، عقولٌ متحجّرة، شعبٌ شبيهٌ بقطيعٍ بهائم، وبوحوش مفترسة. لقد اطّرحوا المسيح، لذا ليسوا أهلاً سوى للشرّ. مجامعهم تشبه أماكن العرض المسرحي؛ إنها كهوفٌ لقطّاع الطرق، ومسكن الشيطان. ولكون الذهبيّ الفمّ مرغَمًا على الاعتراف أنّ اليهود لا يجهلون الآب، يضيف بأنّ ذلك قليل، لأنّهم صلبوا الابنَ، واطّرحوا الروحَ، وبأنّ نفسَهم يسكنها الروحُ الشرّير. يجب أيضًا التحرّز منهم، والاحتراس من المرض اليهوديّ. ويوبّخ الذهبيّ الفم مؤمنيه قائلاً: لا ترتادوا المجامع، ولا تتبعوا السبوت، ولا الأصوام، ولا الطقوس اليهوديّة الأخرى. إذا صادفتم متهوّدين، نبّهوهم إلى الخطر، فإنّكم جيش المسيح. لا تتركوا أنفسكم تصبح في تَبَعيَّة لهم، وإلاّ كنتم معتوهين إلى أقصى حدّ. ماذا تجنون من وِجارِ أناسٍ ينكرون موسى والأنبياء؟ إذا كانت العقائد اليهودية تُثير إعجابكم، فينبغي بالتالي أن تجدوا العقائد المسيحية باطلة.

إن اليهود، بِرَذْلهم المسيح، قد تحوّلوا من أولاد إلى كلاب، والكلابُ الأمميون قد تحوّلوا إلى أولاد. يرفض اليهود أن يقبلوا المسيح الذي صلبوه، لأنهم نموا بذهنية جسدانية؛ لأجل هذا أيضًا اختبروا الكوارث العديدة، وذُبِحوا أو شُرّدوا على يد الرومان. في أزمنة العهد القديم، فشلوا في المحافظة على الشريعة، وعندما أُبطِلَتْ، راحوا يشدّدون على حفظها، مع هذا، خلال أصوامهم، هم "يرقصون عُراةَ القدَمين" في الساحة، ويتصرّفون بإباحية. لا يعبد اليهودُ اللهَ لأنّهم يرذلون الابنَ الذي هو وحده يكشف الآب؛ ولأنّهم يمتلكون التوراة والأنبياء، فإنّ هذا يجعل معصيتَهم أسوأ. ما هو حقًّا سيّء هو أنّ المسيحيين يُعْجَبُون بهم، ويعتقدون أنهم شعبٌ مقدّس، وذوو علاقة مميّزة وخاصة بالله، فيحضرون حفلاتهم، ويعتبرون أنّ أماكنهم المقدسة هي فعلاً مقدسة، إلخ. إنّ ذلك هو بمثابة جَعْلِ نبذِهم من قِبَل المسيح أمرًا واضحًا وباديًا للعيان. لا منفعة من

الاعتقاد بأنّ هناك قِوى شفاء يمتلكها اليهود، لأنّ قيمتها الحقيقية ليست سوى التجديف الذي يعادلُ النَبْذَ اليهوديَّ للمسيح. تنبّهوا من أن يلتحق نساؤكم باليهودية، وحتى من اقتيادكم إلى داخلها!

– العظة الثانية

إلى جانب تكرارِ ما وردَ في العظة الأولى، يشكّلُ حفظُ الأصوام في الوقت ذاته الذي فيه يصوم اليهود، لكونهم مختونين، تَبَنّيًا للعادات اليهودية، وبالتالي عودةً إلى حكم الشريعة التي كانت قد أُبطِلت.

تجدّد العظة الثانية هذا النقد اللاذع الذي يتّخذ شكل مذمّات، شاهدةً بذلك على الهموم التي يسبّبها للذهبيّ الفم التأثيرُ اليهوديّ، الذي يقول: "إن نعاجنا محاطة باليهود الذئاب"؛ "أهربوا منهم، أهربوا من كُفرهم! ليست مجادلاتٍ جوفاء تلك التي تفصلنا عنهم، بل موتُ المسيح. إذا كنتم تعتقدون أنّ اليهودية هي الحقّ، أتركوا الكنيسة، وإلاّ فاتركوا اليهودية. ألا تعلمون أنّ اليهود يقدّمون الذبائح في كلّ مكان في الأرض، باستثناء المكان الوحيد حيث الذبيحة هي صالحة ، أي في أورشليم؟ أتجهلون أنّه هناك فقط بإمكانهم أن يحتفلوا بالفصح، كما تنصّ على ذلك الشريعة؟ فلا تمتثلوا إذًا لفصحهم الوهميّ!

– **العظات الأربع الأخرى** هي لاهوتية أكثر من الاثنتين الأوليَين؛ فلقد استلّ الذهبيُّ الفم من الأنبياء ما كانوا قد أطلقوه من مذمّات، وراح يصف اليهودَ بأنهم سارقون، أنجاس، فاسقون، خَطَفَةٌ، بخلاء، ممتهنو الاحتيال، ظالمون للمساكين، حتى بلغوا الذروة بجرائمهم عندما ضحّوا بيسوع، ومع هذا فهم لا يتوقّفون عند هذا الحدّ. يعطي الذهبيّ الفم البراهينَ ليدحض المجادلات التي من المفترض أنها كانت ناشطة في أنطاكيا. هو يقوم بالدفاع عن الكنيسة، مبيّنًا أنّ إسرائيل هو مشتّتٌ بسبب قَتْلِهِ المسيح. يستلّ من الأنبياء ومن الروايات البيبلية البراهين حول ألوهيّة يسوع، ويوصي سامعيه بألاّ يهرولوا لسماع مواعظ اليهود الذين يسمّون الصليب رجاسةً، والذين ديانتهم هي عدمٌ ودون فائدة للذين يعرفون الإيمان الحقيقيّ. وينهي الذهبيّ الفم المؤمنين قائلاً: إنّه لأمرٌ منافٍ للعقل أن يصادق المسيحيّ أناسًا مصادقة أناسٍ عامَلوا اللهَ من دون كرامة، ويكرّم الصليب في الوقت عينه. لِنَرَ مضمون هذه العظات الأربع:

– العظة الثالثة

لا تحفظوا الصوم في ذات الوقت الذي يصوم فيه اليهود، حتى ولو كانت هذه العادةَ السابقةَ في الكنيسة، لأنّ مجمع نيقيا قد أقرّ للصوم زمنًا جديدًا موحّدًا. إن هذا التوحيد هو حيويّ بالنسبة إلى الكنيسة. كذلك الفصح اليهودي غير صالح إذا ما احتُفِل به خارج أورشليم، وذلك استنادًا إلى الشريعة؛ من الواضح إذًا أنّ الطقس اليهودي هو بدون شريعة. ليس الصوم "بسبب" الفصح أو الصلب، بل بسبب خطايانا، ولأجل الاستعداد للأفخارستيا؛ وبالرغم من كونه مفيدًا لهذا الهدف، فهو ليس ضروريًا على الإطلاق أن يكون هناك أربعون يومِ صيام. كذلك، حَصَلَ الصلبُ في "اليوم الأول من عيد الخبز الفطير ويوم التحضير"؛ إذًا الفصحُ المسيحيّ ليس له علاقة ثابتة بالسَنَةِ اليهودية. وأخيرًا، حتى ولو كانت حسابات كلندار الكنيسة خطأً، فإنّ التوحيد والتوافق يبقيان الأهمّ.

– العظة الرابعة

يريد اليهود أن يختطفوا قطيعي. يحضّون على الصوم، لكنّ هذا الأخير ليس جيّدًا بحدّ ذاته، بل فقط عندما يأمر به اللهُ. لماذا، أنتم المُتَهَوِّدون، تريدون أن تكونوا يهودًا، في حين أنكم مسيحيون؟ اليهود لا يحفظون الفصحَ في أورشليم، وهكذا هم يخالفون بذاتهم الشريعةَ. مع هذا، وإبّان السبي البابلي، إذ لم يكن ممكنًا بلوغ أورشليم، لم يحتفل اليهود بالفصح؛ وهكذا، وبشكل متناقض، أيدّوا الشريعة بعدم الاحتفال بالخِدَمَ

الطقسية. في الواقع، لم يُرِدِ اللهُ أبدًا ذبائح كيفما كان؛ فلقد كانت هذه تنازلاً منه تجاه الضعف البشريّ، وإلاّ لكان الشعبُ قد قدّم الأضاحي للأصنام بدلاً من ذلك. إنّ الله، بحصرِه الذبائح بأورشليم، وبسماحه بتدمير المدينة بعد ذلك (٥٨٧ ق. م. و٧٠ ب. م.)، كان يُبعد الشعبَ اليهودي عن الذبائح. لذلك، عندما يكون اليهود يقومون باحتفالاتهم، "إبقَ أنتَ في بيتكَ، وانْدُبْ وَتَأَوَّهْ لأجلهم". لكنّ المتهوّدين يستحقّون التوبيخ أكثر من اليهود، والأسوأ من الكلّ هم عادةً مسيحيون فشلوا في محاربة الميول التَهوُّدِيّة في الكنيسة.

– العظة الخامسة

رذل اليهودُ المسيح، لكنْ عليهم أن يتبيّنوا مختلف النبوءات التي صنع، والتي تمّت وتحقّقت بالفعل. أن يكون شعبٌ آخر يُشابِهُ المسيحَ – أي مُسحاء كَذَبَة– قد قام أيضًا، هو حصرًا مكيدةٌ من الشرّير. يتوقّع اليهود أن يعودوا إلى أورشليم ويُعيدوا بناء الهيكل، لكنّ هذا لن يكون، لأنّ المسيح قال بأن ذلك لن يحصل، لأنّ مُجمل مسار التاريخ اليهوديّ الذي وصفه الأنبياءُ يؤكّد ذلك. إنّ تفسيرًا مفصّلاً وطويلاً لمختلف التواريخ في دانيال، وغيره، يُبيّن أنّ دمار الهيكل تكرارًا قد تَمَّ التنبّوء به بتواريخ دقيقة، وأنّ الخراب الأخير على يد الرومان هو نهائي. لذلك فشلت محاولة إعادة البناء أيام يوليانوس، ونلاحظ أنه، بقيام اليهود بهذه المحاولة قد اقتنعوا أنّ الطقوس كانت دون فائدة من دون الهيكل.

– العظة السادسة

أتكلم بالنيابة عن الشهداء "الذين كان لهم بغضٌ خاصّ" تجاه اليهود بسبب إراقة هؤلاء دمَ يسوع، والذين لأجله سفكوا دماءهم. لا يستطيع اليهود أن يقولوا إنّ منفاهم هو عقاب مُؤقّت عن تلك الخطايا التي يعترفون بها، إذ إنهم في الماضي صنعوا أشياء سيّئة دون أن يكونوا منفيّين. إنّ ما أصاب اليهود هو نتيجة حتمية لصلبهم المسيح، وهي خطيئة يرفضون أن يعترفوا باقترافها. ولأنّ اليهود هم الشعب المختار، فلقد كان من الواجب أن يكونوا محميّين بطريقة فائقة الطبيعة من أعدائهم، لكن، لأنهم قتلوا الربّ، حلّت بهم الكوارث الرهيبة. ولأن الشريعةَ قد أُبْطِلَتْ، والمعجزاتِ قد توقّفت، فليس الكهنةُ اليهودُ حاليًا كهنةً عن حقّ، بل ممثّلون يلعبون دورًا لا أهمية له تُذكَر. ويختم الذهبيّ الفم بالقول: أتريد أن ترى الهيكل؟ لا تركض نحو المجمع؛ كن أنت نفسك هيكلاً.

٨– الذهبيّ الفم وحماية القطيع

يَعتبر الذهبيّ الفم نفسَه راعيَ قطيع المسيح في أنطاكيا، وعليه بالتالي أن يواجه هجومات الذئاب، لذا يقول: "عندما يشعر الرعاةُ بهجوم الذئاب...، يبادرون إلى حَمْلِ المقلاع...، والتَسَلُّح بالعصي والحجارة، ويقفون أمام القطيع، ويطلقون صرخاتٍ وصيحاتٍ مدويّة، ويكفي غالبًا صوتُهم، ومن دون معركة، لإبعاد الحيوان المفترس. نحن نتصرّف بالطريقة ذاتها: في الأيام السالفة، كنا نفسّر لكم الكتب المقدسة باطمئنان، ومعكم كنا نجول في هذه المراعي المقدسة بكل أمان، تاركين جانبًا سلاح الحرب الكلامية، لأنه لم يكن هناك أيّ عدوّ يهدّدنا؛ ولكن، لأنّ اليهود يتحضّرون ليُحْدِقوا بنعاجنا للانقضاض عليها، من الضروريّ بالنسبة إلينا أن نجاهد ونصارع لكي لا يصبح شيءٌ ممّا هو لنا فريسةً للوحوش المفترسة"(١٤). انطلاقًا ممّا تقدّم، دعا الذهبيّ الفم المسيحيّين الأنطاكيّين إلى

(١٤) يوحنا الذهبيّ الفم، **عظات ضد اليهود**، ٤: ١.

"توسيع شباك التعليم، وتكوين حلقة كَمِنْ كلابِ صيدٍ، ومن كلّ جهة، من أجل الإتيان بهم إلى شرائع الكنيسة، والاستعانة لذلك بالصياد الممتاز، بولس الطوباوي"(١٥).

وهناك أيضًا مسألةُ أعداء، ومعارك، وإستراتجية، وإسعافات للجرحى، علمًا أنّ "الانتصار على الأعداء الذين في الخارج لن يفيد شيئًا طالما الانشقاقات تتواصل في الداخل"(١٦). ويضيف: "نحن أيضًا، لأننا، بنعمة الله، طارَدْنا اليهودَ، مُسَلِّحينَ ضدَّهم الأنبياء...، لِنَرَ الآن إذا كان بعضٌ من إخوتنا لم يُضْحِ شريكًا لهم من خلال الاحتفال بأعيادهم، ولا نَرْمِيَنَّ أحدًا في القبر، بل فلنَجْذِبْهُم وَلْنَشْفِهِم"(١٧).

٩- استحالة أن يكون المسيحيّ يهوديًا أيضًا

يريد الذهبيّ الفم أن يخلّص مسيحيّيه الذين يستمرّون عرضةً للتجارب التي تدخلهم اليهودية فيها، لذلك جاهد كثيرًا لإبعادهم عن المجمع اليهودي، إذ من المستحيل أن يكون المسيحيُّ في الوقت ذاته يهوديًا، فيقول في هذا المجال: "إسمحوا لي أن أوجّه إليهم الكلمة التي كان إيليا النبيّ يوجّهها إلى معاصريه، إذ رأى أنّ اليهود كانوا يستسلمون للكفر؛ فأحيانًا يطيعون الله، وأحيانًا أخرى يعبدون الأصنام؛ لذا توجّه إليهم بما يلي: "إلى متى أنتم تَعْرُجُون بين الجانبَين؟ إن كان الربّ هو الإله، فاتبعوه، وإن كان البعل إياه فاتبعوه" (١مل ١٨: ٢١). وأنا أقول الشيء عينه لمُتَهَوِّدِينا: إذا كنتم تظنّون أن اليهودية هي الحقيقة، فلماذا تزعجون الكنيسة؟ ولكن، إذا كانت المسيحية حقيقية، وهي كذلك، فَابقَوا فيها، واتبعوها! كمسيحيّين أنتم تعبدون يسوع المسيح، وتطلبون منه نِعمًا، ثم تحتفلون بأعياد مع أعدائه"(١٨). ويضيف قائلاً: "إننا نتوجّه بطيبة خاطر إلى من هم أعضاء في جماعتنا بالاسم، ولكنهم يهودٌ بالعبادة، والذين يبذلون كلّ جهد للدفاع عن اليهودية... وأنتَ الذي انتقلتَ إلى طريقة حياةٍ متعارضةٍ مع طريقتنا، أَتَأْمَلُ بأن تَخْلُص؟ هل الفرق بسيط بيننا وبين اليهود؟... لقد صلبوا المسيح، وأنتَ تعبدُه! أنت ترى أيَّ فرقٍ يوجد"(١٩).

١٠- التهمة الكبرى: اليهود "شعبٌ قاتلٌ لله"

اتّخذت الفكرة القائلة إنّ اليهود هم قَتَلَة يسوع بُعْدًا شبه مؤسّساتيّ بين القرنين الثاني والخامس عند آباء الكنيسة. ففي القرن الرابع تكلم الذهبيُّ الفم على اليهود معتبرًا أنّهم "معادون لله"، وسيوسّع النظرية القائلة بأنّ "اليهود هم شعبٌ قاتلٌ لله". ليس اليهود فقط مسؤولين عن موت يسوع، بل أيضًا عن خيانة يهوذا له بتحريض من رؤساء الكهنة اليهود الذين سدّدوا له بدل ذلك ثلاثين من الفضّة. نذكّر أنه، في القرن السادس عشر، حاول المجمع التريدنتيني أن يعالج هذه التأكيدات، فخلع عن اليهود التهمة القائلة بأنهم "قَتَلَةُ المسيح"، لكنّ هذا النصّ لم يكن له سوى مفعولٍ محدود. وقد أُزيلَتْ المسؤولية الجماعية عن اليهود في ما يتعلّق بقتل يسوع، سنة ١٩٦٥، مع إعلان المجمع

(١٥) المرجع ذاته، ٤: ١.
(١٦) المرجع ذاته، ٢: ١.
(١٧) المرجع ذاته، ٨: ١.
(١٨) المرجع ذاته، ٤: ٤.
(١٩) المرجع ذاته، ٤: ٣.

المسكوني الفاتيكاني الثاني الشهير: "عصرُنا" (*Nostra Aetate*).

استنادًا إلى بعض الدراسات، تتكرر عبارة "الشعب القاتل لله" (peuple déicide) مرّات عدة في مؤلفات آباء الكنيسة (١٧ مرة)؛ لكننا نجد تعابير أخرى مثل "أولئك الذين قتلوا الله" أو "الرب" أو "المسيح". إنّ آباء الكنيسة الذين يذكر بعض المؤرخين بأنهم أطلقوا أقوالاً مماثلة في القرن الرابع أو قبله ضد اليهود هم بشكل خاص: أوسابيوس القيصريّ، غريغوريوس النزينزيّ، غريغوريوس النيصيّ، يوحنا الذهبيّ الفم، أستاريوس الحمصيّ، وميليتون السرديّ.

بالتأكيد لم يُغَذِّ آباءُ الكنيسة كراهيةً من النوع العنصريّ ضدّ اليهود، لأنّ نيّتهم كانت فقط حماية الإيمان المسيحي من عدوى اليهودية بعاداتها وتقاليدها المرتبطة بالشريعة الموسوية.

هكذا الذهبيّ الفم، مثلاً، وبهدف أن يحضّ النساء المسيحيّات على عدم ارتياد المجمع اليهودي، رفع الصوت قائلاً: "ليس المجمع اليهودي ماخورًا ومسرحًا فقط، بل أيضًا كهف قطّاع الطرق، وملجأ الحيوانات المتوحشّة". والقديس إيرونيموس تجرّأ أن يكتب ما يلي: "إذا كان جائزًا بُغْضُ الناس وكُرْهُ شعبٍ ما، قد يكون الشعب العبريّ بالنسبة إليّ موضوعَ كُرْهٍ خاص، لأنهم حتى اليوم، في مجامعهم التي هي مجامع الشيطان، يضطّهدون ربَّنا يسوع المسيح".

وملفتٌ للنظر أنه، في تلك القرون، تكثر المؤلّفات التي هي **ضدّ اليهود** (*Adversus Judaeos*) (ر ج ترتوليانوس، وقبريانوس، وأغوسطينوس، ويوحنا الذهبيّ الفم). الموقف المشترك لآباء الكنيسة كان أنّ المسؤولَ عن موت يسوع هو الشعب العبرانيّ، وليس بيلاطس، وانطلاقًا من كونهم شعبًا، نشأت التهمة القائلة بأن اليهود هم "شعبٌ قاتلٌ لله" (peuple déicide). ويتميّز القديس أمبروسيوس عن غيره بأنّه يتكلّم على اليهود كَعَنْ "شعبٍ قاتل لذويه" (peuple parricide)، و يواصل اضطهاد يسوع.

إذا كان الشعب العبريُّ "قاتِلَ الله"، فإنّ كلّ تاريخ اليهود الذي يلي يُفَسَّر بأنه "عقاب إلهيّ". هكذا كتب أوسابيوس (٢٦٥-٣٤٠) في كتابه **التاريخ الكنسيّ**: "حَلّ العدلُ الإلهيُّ عندها بالعبرانيّين...، مُزيلاً بالتمام ذاك الجيل من الأَثَمَة من بين الناس". يتضمن "العقابُ الإلهيّ" رَذْلَ إسرائيل كشعب الله، وإحلال الكنيسة مكانه: هذه أيضًا قناعة مشتركة عند آباء الكنيسة، من كيرلّس الأورشليميّ حتى أغوسطينوس، وتتضمن فقدان إسرائيل حقّه بأرضه الخاصة به.

١١- لقد قتلوا يسوع المسيح

إستنادًا إلى ما تقدّم، اعتمدَ الذهبيُّ الفم خطّةَ عملٍ تقضي بالدعوة إلى تَبَيُّنِ مَن هم الإخوة الذين أصابهم هذا الشرُّ اليهوديُّ، للانطلاق إلى البحث عنهم، وطَرْحِ السؤال التالي عليهم: "هل تؤيّد اليهود الذين صلبوا يسوع المسيح، بالتجديف عليه اليوم أيضًا، وباتّهامه بالتعدّي على الشريعة؟... إنطلاقًا من كونك غيرَ متّفقٍ مع اليهود، لماذا أنتَ على اتّصال بهم؟ لماذا تشترك في أعيادهم؟ لماذا تصوم معهم؟"[٢٠]. طوال معركة الذهبيّ الفم ضدّ المتهوّدين، ركّز على موت يسوع المسيح صلبًا على يد اليهود، وهذه نقطة ارتكاز لا غنى عنها للحثّ على الارتداد: "فكّروا إذًا مع مَن تريدون أن تصوموا: مع أولئك الذين كانوا يصرخون: "إصلبْه إصلبْه"؟ مع الذين كانوا يقولون: "دمُه علينا وعلى أولادنا"؟ أنتم تعبدون المصلوب، ثمّ تذهبون لتحتفلوا بأعياد الذين علّقوه على الصليب! ليس هذا جنونًا فقط، بل إنه جنونٌ على أعلى الدرجات"[٢١]. ويضيف: "لقد قتلوا ابنَ معلّمِكَ،

(٢٠) المرجع ذاته، ٨: ٥.

(٢١) المرجع ذاته، ١: ٥.

وتتجرّأ أنتَ على أن تتّحدَ بهم؟ والذي قتلوه قد شرّفكَ إلى حدّ أنّه جعلَ منك أخًا له وشريكَه في الميراث، وأنتَ تُهينُه إلى حدّ أنّك تكرّمُ قَتَلَتَهُ والذين صلبوه وتخدمهم، من خلال اشتراكك في أعيادهم"[٢٢].

عندما يرتادُ مسيحيٌّ ما مجمع اليهود، فإنه "يبتعد" بكلّ ما للكلمة من معنى، كما يقول الذهبيّ الفمّ: "عندما تبتعد لكي تدخل في شراكة مع أولئك الذين سفكوا دمَ المسيح، ألا تخجل من أن تأتي وتتناول من المائدة المقدسة، وتشترك في دم المسيح ؟"[٢٣]. "مَن يمكنه أن يعطي برهانًا أقوى على أنه لا يحبّ الله، عندما يشارك في أعياد أولئك الذين على يدهم قتل؟"[٢٤]. "إذا كان اليهود لم يعتبروا أنّ السعي في إثرِ المجد الباطل غير هامّ، لما بلغوا إلى حَدّ أن يصبحوا قَتَلة المسيح"[٢٥].

يعلّق الذهبيّ الفم على قول الإنجيل بحسب يوحنا إنّ يسوع لم يكن يريد أن يذهب إلى اليهوديّة، لأن اليهود كانوا يسعون إلى قَتله، فيقول: "ليس أسوأ من الغيرة والحسد؛ به دخل الموت إلى العالم...؛ به قتل (قايين) هابيل...؛ بسببه تألّم العديد من الصدّيقين؛ بسببه أصبح اليهود قَتَلَة المسيح"[٢٦]. وعندما نشترك من غير استحقاق في الأسرار المقدسة، فإننا نهلك كأولئك الذين قتلوا المسيح"[٢٧]. يقول الذهبيّ الفم إنّ نعمة الله تفعل أيضًا حتى في الذين ليسوا أهلاً : "لقد ارتأى الله أن يتكلّم مع قايين بسبب هابيل، ومع الشيطان بسبب أيوب، ومع الفرعون بسبب يوسف... لقد كان للمجوس أيضًا بلوغٌ إلى الوحي، وتنبّأ قيافا في حين أنّه قاتِلُ المسيح"[٢٨].

١٢- الشريعة قادت إلى المسيح وينبغي الآن أن تَمّحي

لعبت الشريعةُ دورًا تربويًّا في مسيرة شعب الله وحياته، ولم يكن لها من دورٍ سوى اقتياد هذا الشعب إلى المسيح يسوع، وينبغي بالتالي أن تَمّحي نهائيًّا؛ هذا ما يراه الذهبيٌّ الفم الذي يقول: "كان زمانٌ كانت الشريعةُ فيه مفيدةً وضروريّةً، ولكنها الآن لم تَعُدْ كذلك. لذا، إذا التجأتُم إليها...، فالمسيح لن يفيدكم شيئًا إن لم تعطوه ذاتكم بدون تحفُّظ"[٢٩]. لقد أُوكِلَ إلى الشريعة دورٌ تربويٌّ من قِبَل العناية الإلهيّة، وما يقوله الذهبيّ الفم في هذا السياق لا يرمي إلى "شجْب الشريعة، ولكن إلى تبيان فيض نعمة المسيح. ليست الشريعة، في الواقع، مناهضةً للمسيح؛ وكيف يمكنها ذلك، طالما أنّه هو الذي أعطاها، وهي تُعِدُّنا لقبوله؟... لقد كانت الشريعة مفيدةً جدًّا للناس، وأنا أُقرُّ بذلك ولا أُنكرُه أبدًا؛ ولكنّك أنت الذي تتشبّث بها تشبُّثًا في غير محلّه، ترفض أن تثمّن فائدتها الكبيرة... إنّ أكبر مديح يمكن أن تحصل عليه الشريعة هو أنّنا لم نَعُدْ بحاجة إلى عونها... أنا الذي تخلّيتُ عنها لكي أتعلّق بعقائد المسيح الأسمى، يمكنني أن أُكرمَها خاصّةً لأنّها دفعَتْني خارجًا عنها لكي أقدر على تجاوز حدودها، والارتقاء إلى ذرى التعليم، إلى ما أُعطيناه بالمسيح. لقد كانت الشريعةُ مفيدةً جدًّا للبشرية، ولكن على قدر ما قادت حقيقةً إلى المسيح، وإلاّ لأَضْحَتْ إزعاجًا"[٣٠].

(٢٢) المرجع ذاته، ١ : ٧.

(٢٣) Jean Chrysostome, *Homélies sur Saint Jean*, 47,4, p. 59, col. 268.

(٢٤) *Ibidem*, 48,1, p. 59. Col. 269.

(٢٥) Jean Chrysostome, *Contre les juifs*, 2,3, p. 48, col. 861.

(٢٦) Jean Chrysostome, *Homélies sur Matthieu*, 86,3, p. 58, col. 767.

(٢٧) *Ibid* 85, 2, p. 58, col. 760.

(٢٨) Jean Chrysostome, *Sur les Colossiens*, 1, 3, 5, p. 62, col. 323.

(٢٩) المرجع ذاته، ٢: ١-٢.

(٣٠) المرجع ذاته، ٢: ٢.

تَمَّحي الشريعةُ إذًا أمام المسيح وأمام ذبيحته على الصليب من أجل خلاص كلّ البشر؛ هذا ما يؤكّدُه الذهبيُّ الفم بقوله: "ليس اليهود هم الذين يكرمون الشريعةَ، بل نحن في الحقيقة مَن يكرمها"[٣١]. ويتابع قائلاً: "إنَّ أكبرَ مديحٍ تستحقّه الشريعةُ هو أنّها أعدّتِ البشريةَ لقبول الربّ"[٣٢].

١٣- مجمع اليهود مكان استعراضات

انجرَّ العديدُ من مسيحيِّي أنطاكيا إلى عادة ارتياد مجمع اليهود، وكأنّي بهم يفعلون ذلك لحضور عملٍ مسرحيٍّ، لسماع أصوات الأبواق، ولمشاهدة المظالّ، وممارسة الأصوام. يقول الذهبيُّ الفم في صوم اليهود: "صحيحٌ أنّهم يصومون، لكنّ الطريقةَ التي بها يصومون هي طريقة أناسٍ سكارى. إسمعوا كيف يأمر النبيُّ بالصوم: قدّسوا الصومَ" (يؤ ١: ١٤؛ ٢: ١٥). هو لا يقول: إجعلوا الصومَ مشهدًا مسرحيًّا...، أمّا هم فإنّهم يجمعون فِرَقًا من المُخَنّثِينَ، يلمّون العاهرات، يُدخلون إلى المجمع المسرحَ مع كلِّ فُكاهِيِّيه؛ بالتالي، بين المجمع والمسرح لا يوجد فَرْقٌ"[٣٣]. ويستشهدُ الذهبيُّ الفم بالنبيّ القائل: "لقد أصبح جبينُك جبينَ عاهرة، و لم تَعُدْ تَخجَلُ أمام أحد" (إر ٣: ٣). المكان الذي تبقى فيه العاهرة هو مكان فُجُور؛ ولكنّه قليل أن يكون المجمعُ مكانَ فجورٍ ومسرحًا وحسب؛ إنّه أيضًا مغارةُ قطّاعِ طُرُق، وموئلٌ للحيوانات المفترسة"[٣٤]. إنّ مكانًا كهذا هو أخطرُ من هيكل مملوء بالأصنام[٣٥].

١٤- أعيادُ اليهود رذلَها اللهُ

يتابع الذهبيُّ الفم تفنيدَ ارتكابات المتهوّدين من المسيحيّين، المشغوفين بالأعياد اليهوديّة، مشدِّدًا على أنّ الله قد رذل هذه الأخيرةَ، فيقول: "إسمعوا بأيّ زخْمٍ رفضَ اللهُ أعيادَ اليهود، عندما قال على لسان النبيّ: "لقد أبغضْتُ أعيادَكم ورذلتُها" (عا ٥: ٢١؛ أش ١: ١٤). يكرهُ اللهُ هذه الأعيادَ، وأنتم تشاركون فيها؟! هو لا يتكلّم على هذا أو ذاك من الأعياد، بل على كلّها. هو يكره أيضًا العبادةَ التي يؤدّونها له بالأبواق، والقيثارات، والسنطور، وباقي الآلات. أتريدُ برهانًا على ذلك؟ "أَبْعِدْ عنّي صخبَ أناشيدِكم، يقول الربّ، لا أُصغي إلى عَزْف آلاتِكم" (عا ٥: ٢٣)، وأنتم تركضون لتسمعوا الأبواق؟ ولكن، حتّى الذبائح والتقادم، أليست هي رِجْسٌ؟ "إذا حملتُم إليَّ زهرةَ الدقيق، فهذا عبثًا. إنّ رائحة بخوركم هي لي رِجْسٌ" (أش ١: ١٣). إنّ رائحةَ البخور هي رِجْسٌ، أفلا يكون المكانُ الذي فيه يتصاعد دخانُ البخور رجسًا؟"[٣٦].

ويُضيف الذهبيُّ الفم تنديدًا آخرَ بالصوم فيقول: "لا تَقُلْ لي إنّ اليهودَ يصومون؛ المهمّ هو أنْ تُبيِّنَ لي إذا كانوا يقومون بذلك وَفْقَ تصميم الله"[٣٧]؛ "إنهم يهينون الشريعةَ بصومِهم كما يفعلون الآن، ويدوسون وصايا الله من خلال اقترافهم عكس ما يرضيه"[٣٨]. بالطبع، هي الشريعةُ مَن يأمر بالاحتفال بالأعياد، ولكنّها تحدّد أيضًا المكان والزمان؛ وبما أنّ اللهَ قد سمح بخراب الهيكل، فإنّه قد جعلَ الاحتفال بالأعياد التي تأمر بها الشريعةُ بعد ذلك مستحيلاً. أيامَ المنفى، امتنعَ اليهودُ عن القيام بهذه الاحتفالات، خاصةً لأنّ

(٣١) المرجع ذاته، ٧: ١.
(٣٢) المرجع ذاته، ٧: ٢.
(٣٣) المرجع ذاته، ١: ٢.
(٣٤) المرجع ذاته، ١: ٢-٣.
(٣٥) المرجع ذاته، ١: ٦.
(٣٦) المرجع ذاته، ١: ٧.
(٣٧) المرجع ذاته، ٤: ١.
(٣٨) المرجع ذاته، ٤: ٤.

الهيكل كان خَرِبًا، أمّا يهودُ أنطاكيا فلا يتورّعون عن ذلك. لقد انقضت العبادةُ القديمةُ مع خراب الهيكل، وعلى الشريعة أن تَمَّحِي أمام المسيح الذي وهب البشريةَ كلَّها شريعةً جديدة.

خاتمة

من كلّ ما تقدّم، ومهما بدا كلامُ الذهبيّ الفم مدوّيًا أو حتّى عنيفًا، يجب ألاّ يغيبَ عن البال أنّ هذا الراعي الصالح كان يرمي من خلال عظاته ضدّ اليهود إلى أن يُنقذَ أبناءَه المتهوّدين، حتّى ولو استعملَ "المقلاعَ والحجرَ والعصا". إنّ الصورَ التي يلجأ إليها لإيصال رسالته هي بدون شكّ موجعةٌ لليهود، ولكنّها ليست بالنسبة إليه سوى أداةٍ استلّ معظمَها من أقوال الأنبياء، ومن الأناجيل، ومن رسائل القديس بولس. الذهبيّ الفم، رجلُ الأبوّة والرعاية والمحبة، العالِم العظيم، والعالَمُ القائمُ بذاته، لا يعرف البغض وإنْ غضب، لا يرذل إنسانًا حتّى ولو اتّهمه خصومُه بما ليس فيه، ولو ألصقوا به ما ليس في الواقع من شِيَمِه، لأنّه عرف الرحمة ومارسها، وخفقَ قلبُه للمعوز فَحَنَا عليه، لأنّ همّه بقي أبدًا قطيعَ المسيح وخلاصَه. وكم اشتهى لو ارتدّ كلُّ اليهود إلى المسيح يسوع الذي وُلِد من نسل داود أعظمِ ملوكهم، وعاش في وسط آبائهم وأجدادهم، وبشّر في أرضهم، ومرّ يصنع لهم الخير بلا حدود! كان هذا القدّيس الكبير يتألّم لو أنّ اليهود الذين صلبوا يسوع، وعرفوا بالتأكيد أنه قام من بين الأموات، يرعوون عن غيّهم، لكنّ العكس هو ما حصل، إذ راحوا يهوّدون أبناءه المؤمنين بكل وسائلهم، وهذا ما يفسّر استياءَه الشديدَ منهم، وتوجيه أقسى أنواع التوبيخ واللوم إليهم، آملاً أن يتركوا المسيحيّين وشأنهم، وأن يدرك هؤلاء أبعادَ اعتناقِهم الإيمان المسيحي، ويعوا متطلّباته وموجباته، فلا يعودوا يسايرون اليهود على حساب المسيح، ولا ينشغفون بممارسات هؤلاء الدينية والاجتماعية، ولا ينقادون وَفْقَ الهوى، بل وفقَ شريعة يسوع المسيح دون سواها.

مراجع

زَهَر عبد المسيح، **القديس يوحنا الذهبي الفم**، موسوعة المعرفة المسيحية، آباء الكنيسة، ٥، دار المشرق، بيروت ١٩٩٣.

كويتر الياس، **خطيب الكنيسة الاعظم القديس يوحنا الذهبي الفم: حياته وبعض من مواعظه**، ترجمها آباء مخلصيون، سلسلة "الفكر المسيحي بين الأمس واليوم"، ١١؛ منشورات المكتبة البولسية: جونيه، ١٩٨٨.

يازجي (الـ) يوحنا، "يوحنا الذهبيّ الفم وأنطاكية"، محاضرة أُلقِيَت في **المؤتمر العالمي العلمي لاحتفالية مرور ١٦٠٠ سنة على رقاد القديس يوحنا الذهبي الفم**، مؤتمر في إسطنبول ١٣-٢٠٠٧/٩/١٨.

BRAUN R., «Le peuple juif, est-il déicide?», in *Rencontre chrétiens et juifs*, n° 10, supplément, 1975, p. 54 - 71.

CATTENOZ Jean-Pierre, «Jean Chrysostome face au judaïsme», *La connaissance des Pères de l'Église*, 20 (988) 5-13.

De MONTFAUCON Bernard, *Sancti Patris Nostri Ioannis Chrysostomi…*, Parisiis 1718-1738.

Encyclopedia Judaica: "John Chrysostom".

ISAAC Jules, *Jésus et Israël*, Paris, Albin Michel, 1948.

JOHN CHRYSOSTOM, *Discourses against Judaizing Christians* (vol. 68 of Fathers of the Church), trans. Paul W. Harkins (Washington, DC: Catholic University of America Press), 1979.

Idem, *Discourses Against Judaizing Christians* (The Fathers of the Church, 68), by Paul W. Harkins, 1999.

KÜNG Hans, *Le Judaïsme*, traduction de J. Feisthauer, Paris, Seuil, 1995.

LUCAS, *Zur Gechischte der Juden im vierten Jahrhundert*, Berlin 1910.

WILKEN Robert Louis, *John Chrysostom and the Jews: Rhetoric and Reality in the Late Fourth Century* (The Transformation of the Classical Heritage, 4; Berkeley: University of California Press, 1983).